امرأة متمردة

د. سعاد الصباح

رفضت فى شـجاعة وتمرد أن أحيا أيامى كما يحلو للغير العيش وفـق قواعد البروتوكول. وأن أتكلم على سـجية اللسان لا كما يرسمه معجم الخليفة.

obeikandl.com

د. سعاد الصباح.. تلك الشيخة الكويتية التى قالت فى نصوصها الشعرية «فتافيت امرأة» ما لم تقله كل موائد الحداثة فى شعرنا العربى المعاصر.. والحداثة هى أن تتواصل مع العصر وأن تواصل ما تحجم به النفس ويصهل به القلم لأبناء العصر بلغتهم لا بلغة القرن العاشر أو القرن الخامس والعشرين.. هذا ما فعلته.. فليس هناك شاعرة عارضها جيلها كسعاد الصباح، وما من شاعرة قرأها جيلها بكثافة مثل سعاد الصباح.. وما من شاعرة عبَّرت عن جيلها فى شعرها كسعاد الصباح.

فى هذا الإطار من الشىء وضده.. ومن الحالة ونقيضها تظل صورة الشاعرة سعاد الصباح سوية واضحة ومعبرة وبريئة صادقة فى الإبداع وبين ضلوع العاشقين فى الوجد..

سعاد الصباح شاعرة استثنائية فى شجاعتها وتمردها ورفضها.. استثنائية فى طموحها المشروع لأن تحيا أيامها كما يحلو لها العيش لا وفق ما تقرره قواعد البروتوكول.. وأن تتكلم على سجية اللسان لا كما يرسمه معجم الخليفة..

استثنائية فى قرارها الحازم بالخروج من عصر الحريم والدخول إلى عصر العلم وتحديدًا على الاقتصاد الذى هو جوهر العلوم قديمها وحديثها مثلما هو فى جوهر النظم فى مكتبها بالطابق العاشر من بناية الخطوط الجوية الكويتية حيث تتولى سعاد الصباح بجدارة مهام رجال الأعمال.

وإذا كان الشعر العربى قد حافظ على نقاء عذريته على مر العصور بالقياس إلى الفجور والتهتك اللذين عرفتهما طقوس العشق عند الأوروبيين فى حقب مختلفة.. وحاول الغرب الأوربى نفسه وصم العشق العربى

بما ليس فيه من فجور وتهتك.. فمن هنا نهض شعراء العرب والأدباء العرب من رواة وقاصين.. بهذه المهمة بدءا بامرئ القيس وعنترة ومرورا بعمر بن أبي ربيعة وابن الملوح وصولا إلى سعاد الصباح التى نهضت بمهمة التأريخ للحب وسن قوانينه فقالت فى نصها الشعرى: «أعلى شجرة فى العالم»

عندما كنت طفلة
كنت أتصور أن الشجرة
هى أعلى مكان فى العالم
وعندما أصبحت امرأة
وتسلقت على كتفيك
عرفت أنك أكثر ارتفاعا من كل الشجر
وأن النوم بين ذراعيك لذيذ لذيذ
كالنوم تحت ضوء القمر

وتحت عنوان «التوقيت النسائى» تقول:

لا يوجد توقيت شتوى لمشاعرى
ولا توقيت صيفى لأشواقى
إن ساعات العالم كله
تضرب فى وقت واحد
عندما يحين موعدى معك

وتحت عنوان «ضربة شمس» تقول:

يقولون لى فى سويسرا
البسى ثيابًا صوفية سميكة

obeikandl.com

كى لا تصابى بضربة برد
أطعتهم.. وتدثرت بألف قبعة
وألف كنزة صوف
ولكنى رغم كل ما لحفت به
جسدى..
نسيت أن أحضن قلبى
فأصبت بضربة حب
الحب هو انقلاب فى كيمياء الجسد
ورفض شجاع لروتين الأشياء
وسلطة البيولوجيا

□□□

وسعاد الصباح امرأة استثنائية تخلت باختيارها عن التاج والصولجان وآثرت العلم والشعر فخانت بهما قوانين الأنثى.. قالت:

مثل جميع نساء الأرض
مغازلة امرأة
قد كان بوسعى
أن أحتسى القهوة فى دفء فراشى
وأمارس ثرثرتى فى الهاتف
دون شعور بالأيام والساعات
قد كان بوسعى أن أتجمل.. أن أتكحل
أن أتدلك..

أن أتحمص تحت الشمس
وأرقص فوق الموج ككل الحوريات
قد كان بوسعى
أن أتحلى بالفيروز وبالياقوت
وأن أتثنى كالملكات
قد كان بوسعى ألا أفعل شيئا
ألا أقرأ شيئا
أن أتفرغ للأضواء.. وللأزياء.. وللرحلات..
قد كان بوسعى
ألا أرفض
أن لا أغضب
أن لا أخرج فى وجه المأساة
قد كان بوسعى
أن أبتلع الدمع
وأن أبتلع القمع
وأن أتأقلم مثل جميع المسجونات
قد كان بوسعى
أن أتجنب أسئلة التاريخ
وأهرب من تعذيب الذات
قد كان بوسعى
أن أتجنب آهة المحزونين

obeikandl.com

وصرخة كل المسجونين
وثورة آلاف الأموات
لكنى خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الظلمات

□□□

فى النص الشعرى «وصل السيف إلى الحلق»
من يقرأ النص يستشعر أن كارثة ما آتية لا ريب فى ذلك.. ويبصر تفاصيل ما حل بالفعل بالكويت وبغداد..
قالت:

وصل السيف إلى الحلق
وصل السل إلى العظم
مازال لدينا شعراء يكذبون
ويقولون على الأوراق ما لا يفعلون

هذه الثورة أو النبوءة.. هذه الصيحة.. هذا الشعر.. هذه العراقة.. لم نقرأ لشاعرة قبلها مثل هذا الوعى للحقيقة والفهم لحركة التاريخ.
مثلما نقرأ لها معبرة عن أحوال العصر تقول:

يازمان الصرف والنحو شبعنا عبثا
وكلامًا فارغًا..
ووشايات نساء..
أعطنى سيفا
وخذ منى دواوين جميع الشعراء

والشـاعرة سـعاد الصباح لا تنسـى حتى فى انتمائهـا فى خطابها الأنثوى هاجس الخوف من التلوث النفطى تقول:

يا صديقى:

إن عصر النفط ما لوثنى

ولا زعزع بالله اقتناعى

أنت لو فتشت فى أعماق روحى

لوجدت اللؤلؤ الأسود مزروعا بقاعى

وتحكى سـعاد الصبـاح عن أن الصوت الأنثـوى كان خلال مرحلة تاريخية طويلة مرتبطا بفكرة العار والعرض والشـرف الرفيع حتى وصل الزمـن ببعض الغـلاة والمتزمتين إلى اعتبار صوت المرأة عورة لا يجوز أن يسمعه أحد.

الاشتراكية العاطفية

لقد قاتلت المرأة طويلًا.. لاستعادة صوتها والخروج من مرحلة الخرس الطويلة حتى تمكنت من إعادة تشـكيل حنجرتها بعد أن غطاها الصدأ نتيجة لعدم التدريب وقلة الاستعمال.

وعلـى الرغم من أنه فى بدايات هـذا القرن بدأت المرأة تتخلص من الحجاب المفروض عليها وفإنَّ الحجاب المفروض على صوتها لم يتزحزح سوى سـنتيمترات قليلة! وظلت المرأة رغم انفتاح أبواب العالم والمعرفة أمامها لا تسـتطيع أن تعبّر عما يدور بعالمها الداخلى.. فالمجتمع برغم كل التحـولات التى طرأت على بنيته، يعتبر الصوت النسـائى مؤامرة على دولة الرجال وسـلطانهم.. ويعتبر المرأة الفضيحة ظاهرة شـاذة أو

مرضية لابد من معالجتها بالعقاقير والمضادات الحيوية..

هكذا ظل فم المرأة مغلقا بالشمع الأحمر. وغير صالح إلا لارتشاف الماء ومضغ الطعام..

ولذلك أردت أن أحقق نوعًا من الاشتراكية العاطفية.. بعيدًا عن أى فكر إقطاعى أو قبلى أو اضطهادى.. وأن أسترد حقى الطبيعى كأنثى فى نقل مشاعرى إلى من أحبه دون أى شعور بالنقص أو الاضطهاد أو بالخروج على قواعد الأخلاق العامة.

فالحب الكبير لم يكن فى يوم من الأيام مناقضًا للقيم العليا والأخلاق فقالت فى قصيدتها:

فى بعض لحظات الوله
يخطر لى أن أجفف شعرك
وأنت بين يدى.. مستسلم لحنانى
وفى بعض لحظات الانخطاف
أحمل لك زجاجة الشامبو
وأنتظر
حتى أعطيك الشعور
بأنك أحد الأباطرة
فى بعض لحظات الجنون يخطر لى أن أُقَبِّلُكَ
ووجهك مغطى بصابون الحلاقة
أستعمل معجون أسنانك

مزرعة تعاونية واحدة.. وتقول:

أصعد إلى سقف القمر

لأقطف لك قمراً..
أصعد إلى فضاءات
لم تصعد إليها امرأة قبلى
وأرتكب كلامًا عن الحب
لم ترتكبه سيدة عربية قبلى
ولا أظن أنها سترتكبه بعدى
أتورط معك حتى نقطة اللارجوع
وأمشى معك بلا مظلة
تحت أمطار الفضيحة
أذهب معك إلى آخر نقطة فى اللغة
وآخر نقطة فى دمى
حتى أستحق أن أكون حبيبتك
أطير ألف سنة ضوئية
وأحلق على ارتفاع ٣٢ ألف قدم
حتى ألامس يديك
مهمشة - محطمة كقطار خرج
عن قضبانه..
فحاول أن تلصق أجزائى

□□□

وتعيش الشاعرة سعاد الصباح أعمق لحظات الحزن عندما اختار الله طفلها «مبارك» إلى جواره.

فعبّرت بشعرها عن أحزانها تحت عنوان «سؤال».. فقالت:

رفاقك الصغار يسألوننى عن الخبر
شهر مرّ والمبارك ما ظهر
فإن أقل مسافر.. قالوا إلى متى سفر؟
قد أقبل الصيف على
شاطئنا وما حضر

وكان ديوان الرثاء العربى على مر العصور خاليًا من النواح والفجيعة عامرا بامتداح المرثى وبوصف تأثير الموت على نفس الراثى..

وبمقدار ما برعت الشاعرة سعاد الصباح فى الصراخ نعيا وبكاء، فإنها وقفت إلى حد النحيب وتجاوزت النحيب إلى مرحلة لغة الصمت الذى يهمس بالحزن وينم عنه دونما تعبيرات خارجية.

وفى رثاء الشاعرة سعاد لطفلها مبارك الذى غاب فجأة وذوى قبل الأوان كما تنزوى الزهرة فى فجر ميلادها وفى أوج تألقها، تحشد الشاعرة صورًا ابتكرتها فى ذاكرة الأمومة وذاكرة الأنوثة وذاكرة الإبداع.

وسعاد الصباح تشكل ظاهرة شعرية فريدة فى نوعها، فمعظم الشعراء الذين ولدوا عبر العصور وفى مختلف البقاع فى أسر ملكية أو أرستقراطية لم يخرجوا فى شعرهم عن تقاليدهم شكلًا ومضمونًا.. بل إن بعضهم كان ذا نظرة طبقية أو عنصرية تفوح منها رائحة مخايل العنجهية والكبر.. وكان دفاعه عن دمه الأزرق أو عن طبقته هو همه الأكبر الذى شغله عن وطنه وقومه.. ولم يكن شعره محلًا لتغيير الأمر الواقع، بل كان تكريسًا وتدعيمًا وتثبيتًا له فهو يرى فى التغيير اضطرابًا وفى الثورة فوضى وانقلابا على قيمه الأثيرة..

من هنا فإن الثورية الفريدة التى تميزت بها كل أشعار سعاد الصباح قد فجرت الكثير من الأفكار الثورية والقضايا القومية والمعانى الحضارية التى تجنبها شـعراء آخرون لا يملكون ما يخافون على ضياعة.. بل إن ثورتها لم تقتصر على أبناء الوطن، حيث امتدت لتشمل رفاقها وزملاءها من الشعراء المحترفين والمرتزقة.. غير عابئة بما يجره ذلك من خصومة وعـداوات.. ففـى وطنها الكويت يظن الجميـع أن النفط هو مصدر كل الخيرات وبدونه لا تقوم للبلاد قائمة، لكنه فى نظرها مصدر كل الكسل والتواكل والضياع والتراخى..

فتقول:

ثم حلت لعنة النفط علينا
فاستبحنا كل ما ليس يباح
فالبساتين فراش للهوى
والنساء الأجنبيات
يعطرن لياليا الملاح
والدنانير على الأقدام ترمى
وعلى الأجساد تصطف القداح
هكذا يا وطنى
ترفع رايات الكفاح
هكذا يبكى على الحائط سيف
هكذا.. من يأسه يبكى السلاح

كما قالت:

يا زمان القبح.. من أين يجيء المبدعون
فى بلادى..
وعلى أى صليب من دموع يولدون
أعطنى شبراً من الأرض يسمى وطنا
ما به مشنقة.. أو مخبرون
لا تُغَطِّهِ المنافى والسجون
وصل السيف إلى الحلق
ومازال لدينا شعراء يكتبون
وصل السل إلى العظم
ومازال لدينا شعراء يكذبون
ويقولون على الأوراق.. ما لا يفعلون
وقالت:
وطنى.. أصبحت لا أعرفه
هل هو البازار؟
والشيكات من غير رصيد
ودكاكين القمار؟
هل هو الشعب الكويتى الذى
تذبحه المافيات فى ضوء النهار؟
فاغضبى أيتها الأرض التى
ما شاركت فى الحرب إلا بالصراخ
والتى ما أنجبت من مخاض موجع

غير فرسان (المناخ)؟

وشعر سعاد الصباح ليس هجاء لمافيا العصر وأحوال الوطن بالأسلوب التقليدى ولكنه وعى عميق بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية، فهى حاصلة على الدكتوراه فى التنمية والتخطيط من جامعة ساسرى بإنجلترا، مما يمنح شعرها رحابة وعمقا وأبعاد لا تتأتى للشعراء الذين لا يعرفون من الشعر إلا نظم القوافى.. فقد طعّمت رؤيتها الشعرية بمعطيات العصر السياسية والاقتصادية فلمست نبض العصر وجسدت ضمير الأمة..

فتقول:

اغضبى
أيتها الأرض التى نامت طويلا
فى فراش من ذهب
اغضبى
أيتها الأرض التى تشرب بترولا
وتبنى عرشها فوق الحطب
اغضبى
أيتها الأرض التى أسكرها المال
وأعماها البطر
إننى أرفض أن أعتبر النفط قدر
فأنا لا أعبد النار
ولا أرمى بأطفالى طعامًا للهب